مع قصة لألان روب جرييه

بقلم الدكتور عبد الحميد ابراهيم

الآن روب جرييه

يشغل الوصف المركز الرئيسي في قصة آلان روب جرييه ، فهو محور الارتكاز الذي يقوم مقام الحدث في القصة التقليدية ، الوصف الدقيق للموضوع الخارجي الذي يتناول جزئياته ويحاول تحديد مكانه بالنسبة لما حوله ، ان في قصة « الشاطىء » ـ التي سأقدم للقارىء ترجمة لها ـ يتتبع حركات الموجة وعلاقاتها الظاهرة مع الموضوعات الخارجية ، واثر الاقدام على الرمل وعمقه وشكله .

ومن هنا كان اهتمامه « بالكاميرا السينمائية » ، لا بالعنى الفوتوغرافي الذي يحاول ان يجعل من الفن صورة طبق الاصل للتجربة الخارجية ، فان هذا المعنى بذلك المفهوم الضيق قد تضاءل في عالم الفن ، لانه يمكن ان يساوي بين التجربة الفنية والدقة المهنية بل انّ الدقة المهنية ـ كما تؤديها الكاميرا ـ تفوق بهذا المفهوم لانها قديرة على النقل والمطابقة . وانما اهتمام جرييه بالكاميرا نابع اساسا من اتجاهه الجديد في الاحتفاء بالموضوع كوجود قائم لا يخضع لمفاهيم مسبقة ولا لمشاعر انسانية ، فالشمس ليست حزينة والبحر ليس في معركة يرمي بالحمم والبراكين كما في الوصف التقليدي الذي يجعل الظاهرة الخارجية مجرد « ديكور » يحمل احاسيس الانسان . وانما الشمس ـ وقصة الشاطىء مثل على ذلك ـ هي الشمس بضوئها العمودي الحاد ، والبحر هو البحر بموجاته التي تنشأ في فترات منتظمة وفي مكان محدد تحمل الحصي الذي يطقطق وتحدث نقرة فوق الرمال .

ومن هنا اختفت كل قيمة انسانية في قصصه ، فلا عاطفة او صدى لعاطفة ولا استعارة ولا خيال مما يضفي على الخارج لونا من الاحاسيس لا تتدخل في ماهيته ، لان كل الاحاسيس ملغاة في عالم جرييه ويعتبرها نوعا من الغرور البشري الذي يريد ان يخضع الوجود الكوني لمشاعره ، وقد يكون هذا الفرق مقبولا في عصر « الارض هي محور الكون والانسان هو سيد الوجود » ، اما وقد تبين بما لا يدع مجالا للشك ان الارض ذرة صغيرة في كون رهيب والانسان هو وجود مع موجودات كثيرة لها استقلاليتها وليست بالضرورة موجودة من اجله ، فلم يعد لهذا الادعاء مكانه (ما زلت اذكر لوحة (اشارة حساسة) للفنان التشيكي « ميكو لاج ميديك » التي عرضت في معرض المستنسخات الدولية بالقاهرة سنة ١٩٦٨ ، فهي مجرد شكل لشي يشبه (⊤) .ولكن له وجوده الحاد المستقل الذي يفرض على المشاهد الرهبة والخطورة ، انها تماما توحي بالفكرة نفسها التي توحي بها قصص آلان روب جرييه) .

ومع تلك الموضوعية التامة في قصص جرييه فاننا نحس بالتعبير عن جمود الحياة اكثر مما يفعل بيكيت مثلا ، الرعب والوحدة امام هذا العالم الخامد الذي لا ينطق بشيء اكثر من وجوده . ان كل شيء يتساقط وكل ما كان يعيش فيه الانسان من قبل هو وهم من صنع نفسه ، ان الانسان هنا لا يزيد في نظر الحياة عن هذه المجموعة من الطيور المتحركة على الشاطيء ، او عن آثار الاقدام ذات الوجود الميكانيكي وكل الفرق ان الانسان يسعى نحو شيء لا يدركه ولا يتبينه ، تماما كهذا الجرس الذي يدق من بعيد ويختلط صوته بطول المسافة .

ان جمود العالم وخرسه في هذه القصة التي نترجمها اكثر تعبيرا مثلا من بيكيت في مسرحيته « كل الساقطين » فالرجل الذي القى بالطفل ـ رمز الاستمرار ـ من القطار هو مرتبط بالحياة بصورة ما ، هو لا يرفضها الا لانه يعتقد فيها الكمال الانساني الذي يتطلع اليه . اما هنا فلا يفتقد شيئا لانه لا يتطلب من الامور اكثر مما تقدم ولا يطمع في شيء من كوب جامد ، فلم الاحساس بالعبث ولم افتقاد المنطق من الحياة وهي لا تقدم للانسان الا كما تقدم للطير او للبحر او للموجة ؟

بل انه جمود ازلي وملازم للكون ملازمة الصفة الجوهرية لماهية الشيء ، فالقصة تنتهي والوجود مستمر في سيره وسيكانيزفيته ، الموجة ترتفع ثم تتلاشى والاطفال يسيرون ثم يعاودون السير والطيور تطير ثم تحط ، وهكذا حركة سرمدية وآلية لا يدرك مغزاها ولا منتهاها اذ لا مغزى ولا انتهاء لها .

وهنا نجد جرييه يقع في منطقة العبث على الرغم من مهاجمته لكتاب العبث التراجيديين على حد وضعه والذين يفترضون في الكون انسانا يصم اذنيه عن ندائهم فيجمدونه في « شكل لعنة فتردد متواتر رتيب تحت مظهر الحركة الدائمة » (٢) فالنشاط الانساني في هذه القصة وهو حركات الاطفال الثلاثة الرتيبة والمكررة ، وكذلك النشاط

١ ـ كاتب فرنسي ولد سنة ١٩٢٢ وما زال حيا ، اشتهر بمذهبه الجديد في وصف الشيء الخارجي وصفا دقيقا يبرز حضوره المستقل تماما عن حضور الانسان . وهو يهاجم كتاب العبث لانهم يفترضون من الانسان والكون رابطة قد ضاعت وهم يتصايحون طلبا لاستردادها . من اشهر رواياته : البصاص (١٩٥٥) و « في التيه » (١٩٥٩) . ومن اشهر ما كتبه للسينما : « العام الماضي في مارينباد » . لم تترجم له قصص بالقاهرة ما عدا قصة « ثلاث رؤى » التي ترجمها الاستاذ (ادوار الخراط) ونشرها بمجلة « جاليري » سنة ١٩٦٨ في عدد مايو سنة ١٩٦٨ . وقد ترجم له الاستاذ مصطفى ابراهيم مصطفى كتابه « نحو رواية جديدة » ونشرته دار المعارف بالقاهرة .

٢ ـ نحو رواية جديدة ص ٦٢ .

الانساني في قصة اخرى له هي « البديل » والمتركز فـي قراءة التلاميذ قراءة رتيبة لا حياة ولا معنى لها ـ هي مظهر من مظاهر العبث في اعنف صوره . والفتور ازاء الخارج و انعدام الحماسة للاستكشاف يحمل من العبث ما لا حد لـه وكما هو واضح من موقف الاطفال عند سماع الجرس فلا يتوقفون وانما هي جمل يتبادلونها وهم يسخرون في حركتهم ، وكذلك في موقف الرجل في قصة اخرى هي « الاتجاه الخاطىء » الذي يظهر فجاة ويلقي نظره علـى منظر الغابـة والاشجار واشعة الشمس ثم يستدير ليرجع من حيث اتى .

ان جريبه يقدم لنا عالما مستقلا وجامدا يثير الرهبـة حتى آنية القهوة في قصة « البديل » لهـا وجودها الحاد ، والقارىء يتحول امام هذا العالم المصمت الرهيب الى طفـل يحاول ان يتعرف عليه باللمس والبصر ، ولكنه لا يستطيع ان يصل الى التحديد فعلى الرغم مـن الوصف الدقيق و التحديد المكاني ، فما زا لكل شيء قابلا للمناقضة وما زالت الاوصاف المكانية نسبيـة ، يسار الغرفـة مثلا في قصة « المانيكان » هو الجانب الايمـن للنافـذة . والاوصاف تختلط ففي المرآة المستطيلة يظهر النصف الايمن للنافذة وفي مرآة الدولاب تظهر النافذة كاملة بنصفيها وعلـى آنية القهـوة يظهر شكل مربع الاضلاع هو انعكاس مشوه للنافذة . ان العالم هنا يتحول الى العالم الذي ادهش الانسان الاول . هو يتضخم ويكبر حتى يكون له وجـوده المستقل بذاتـه ، آنية القهوة والنافذة والمائدة يتضاءل امامها الانسان ، وكل الفرق ان الانسان الاول قد اسقط مشاعره على هذا العالـم وافترض فيه روحا وجنا وسحرا ، امـا هنـا فكل المشاعـر الانسانية تختفي ، ولا تبقى الا اوصاف ينافض بعضها البعض في محاولة للتعرف ، وليس حتما ان تصل هذه المحاولة الى القطع والتحديد . فهو يريد ان يقدم الوجود في نسبيته ومن خلال عملية خلق وتحطيم واوصاف تتناقض وتنكـسر وتدور حول نفسها ، انه لا يطلب مـن القارىء استئصال عالم ممتلىء مغلق على نفسه بل يسأله ان يساهم فـي عملية الخلق وان يخترع بدوره العمل الذي يقرأ ـ والعالم ايضا ـ وان يتعلم بهذه الطريقة ان يخلق حياته هو » (١) .

ان الاثر الانساني وان اختفى او تضاءل فما زالت الدعوة من المؤلف الى القارىء موجهة ، ان مجرد تصوير الخارج والكتابة عنه هو دعوة الى محاولة استنطاقه ، ان رائحـة القهوة الساخنة التي تفوح في قصة « المانيكان » هي دعـوة للانتظار البشري ولكنها دعوة تتطلب فهما جديدا يبتعد عن الغرور والاسقاطات الانسانيـة ، وان قصة « البديـل » محاولة من تلميذ خارج الفصل في الامساك بغصن الشجرة، يغفل عنها التلاميذ المشغولون بالقراءة وبالنظر الـى صورة معلقة على الحائط لرجل متطوع ، يقول جريبه وهو يدفـع عن نفسه تهمة خلو قصصه من الانسان : « ولكننا نعلق على الانسان كل آمالنا فالاشكال التي يخلقها هي التي تستطيع ان تأتي للعالم بالدلالات » (٢) .

وهنا في مصر قد نجد اتجاهات تتشابه ـ ولا اقول مغايرة ـ مع فرجيينيا وولف او مـع كافكا او حتـى مع بيكيت في عدميته المفرطة ، اتجاهات عبثية تجد ميلا في نفوسنا ، ونعبر عن العالم الكئيب اللامعقول المليء بالاحباطات ، وقـد تتخذ هذه التعبيرات الطابع الهلامي الـذي يصور الانسان قبيل مرحلة التشكك وهو مادة مختلطة رحمية تتسافط اليه اصداء مرعبة في العالم الخارجي ، او طابع اللاشعور الذي يعايشه الفنان ويجد في منطقه السريالي عوضا عن واقـع كئيب ، او عالم الطفولة في منطقها الذي يتحدى الصرامـة والجهامة .

ولكننا لا نجد اتجاها يتشابه مـع نزعة جريبه الموضوعية ، ربما لان النفس المصرية في عمومها تميل الى التعبير عـن الكآبة والاحساس بالاصابات المتنوعة والتركيز علـى الجانب الشعوري . وربما لان هـذا التيار يحتاج الـى موضوعية تامة لم ندرب عليها في سلوكنا وفي تفكيرنا والى جرأة نفسية بالغة لا تشمئز مـن مجرد مناقشة فكـرة مساواتها في نظر الحياة ـ وانا الانسان المكرم ـ مع كـل الموجـودات مساواة تامـة .

ربما .. وربما .. ولكن الافضل ان اتـرك لترجمـة القصة الافضاء ـ في صورة تطبيقية ـ بكل هـذا التجريد النظري .

الشـاطيء (١)

كانوا اطفالا ثلاثة يمشون على طول الشاطىء ، يتجهون الى الامام، جنبا الى جنب ، يمسك كل منهم بيد الآخر ، يبدون في طول متقارب ، بل وفي عمر واحد هو حوالي الثانية عشرة ، وان كـان الاوسط يصغرهم قليـلا .

وما عدا هؤلاء الاطفال الثلاثة فالشاطىء الطويل مهجور من اولـه الى آخره ، هو عبارة عن بقعة من الرمال ، منبسط وعريض الى حد ما، ليس به صخور متفرقة ولا برك ، بل كل ما به هو انحدار طفيف ، بين البحر والجرف الوعر الذي يصعب اجتيازه .

الطقس جميل جدا ، الشمس تنير الرمل الاصفر بضوء عمـودي حاد ، لا سحاب في السماء ولا اية ريح ، المياه زرقاء هادئة دون ادنـى هيجان من البحر الفسيح ، مع ان الشاطىء منكشف تماما علـى امتداد الافق .

وان كان في فترات منتظمة تحدث موجـة مباغتة وتمتـد بضع ياردات على الشاطىء ، ولكنها هي الموجة نفسها في كل فترة ، وفجـأة ترتفع ثم ما اسرع ان ترتطم ببقعة معينة ، دائما هي البقعة نفسها فـي كل فترة وبلا تغيير ، ودون الاحساس بأن المياه في حالة مد يعقبه جزر، بل على العكس سيبدو كما لو ان الحركة بأكملها تتم في المكان نفسه .

يحدث ارتطام المياه على جانب الشاطىء نقرة صغيرة ، وتأخذ الموجـة في التراجع مصحوبة بطقطقة الحصى المتدحرج ، ثم تنفجر باسطه لونا لبنيا على المنحدر يغطي الارض التي كانت قد تراجعت عنها ،في احايين نادرة قد تزيد في الارتفاع قليلا وتبلل لفترة وجيزة بضع لوحات اكثر.

ويعود كل شيء الى ما كـان عليه اولا ، البحر في نعومته وزرقته يقف عند المستوى نفسه على الرمل الاصفر الممتد على طـول الشاطىء ، حيث يسير الاطفال الثلاثة جنبا الى جنب، لونهم اشقر يشابه الـى حد كبير لون الرمل وشعرهم وجلدهم ، بل الى السمرة وشعرهم يميل الى البياض ، كان الثلاثة يلبسون ملابس متماثلة : بنطلـون قصيـر

١ ـ The beach ، ظهرت هذه القصة سنة ١٩٦٢ ، وهـذه ترجمة عن النص الانجليزي المترجم من « باربارا رايت » فـي كتـاب « لقطات » .

١ ـ نحو رواية جديدة ص ١٣٨ .
٢ ـ المرجع السابق ص ١٢٥ .

وقميص بهتت خيوطهما الزرقاء ، كانوا يسيرون في اتجاه مستقيم ، جنبا الى جنب ممسكا كل منهم بيد الاخر ، في موازاة البحر وموازاة الجرف وعلى بعد متساو من كليهما وان كان يقترب قليلا من البحر ، كانت الشمس عمودية فوق رؤوسهم فلم تحدث اشعتها ظلالا عند اقدامهم .

امامهم امتد الرمل الصافي اصفر ولامعا من البحر الى الجرف . سار الاطفال في خط مستقيم ، وبسرعة منتظمة ، وبلا ادنى التفات خلفهم ، هادئين ، ممسكا كل منهم بيد الاخر . ومن ورائهم خلفت اقدامهم الحافية ثلاثة خطوط فوق الرمل المندى ، ثلاث سلاسل منتظمة بين آثار متماثلة وذات فراغ وعمق متساويين ولا خلل فيها .

كان الاطفال يتقدمون في خط مستقيم ، لم تبد منهم لفتة ما ، لا للجرف الطويل الواقع على شمالهم ، ولا للبحر وفي الموجات الصغيرة التي تبزغ على فترات والواقع على الجانب الآخر ، كانوا يميلون قليلا ميلا منتظما ليستديروا ويعاودوا السير من حيث اتوا . استمروا في طريقهم بخطوات سريعة ومنتظمة .

***

كانت مجموعة من طيور البحر تسير امام الاطفال على طول الشط، وبالتقريب على حافة الامواج ، كانت موازية لهم في مسافة لا تتغير على بعد حوالي مائة ياردة منهم ، لكن قد يحدث ان الطيور تقلل من سرعتها فيكون حينئذ في مجازاة الاطفال . وبينما يمحو البحر باستمرار اثر ارجلها الذي يشبه النجمة ، تظل اثار الاطفال محفورة بوضوح فوق الرمال المنداة ، حيث تأخذ الخطوط الثلاثة في الامتداد .

يظل عمق هذه النقوش ثابتا ، اقل من بوصة ، لا يتشوه شكلها سواء بتآكل حوافها او بعمق الانطباع الذي يحدثه كعب الرجل او اصبع القدم . بدت كأنها قد ثقبت ميكانيكيا فوق قشرة الارض المتحركة .

كانت خطوط الاطفال الثلاثية تمتد هكذا لمسافة بعيدة ، وبدت في الوقت نفسه وهي تقترب من بعضها ، وهي تبطيء في حركتها ، وهي تتجه في خط واحد يقسم الشاطيء على مدى طوله الى قسمين . وعلى نهاية النظر تختفي هذه الخطوط في حركة ميكانيكية دقيقة فالاقدام الستة الحافية ترتفع ثم تنخفض على التوالي وكأنها تقيس للوقت .

لكن كلما ابتعدت الاقدام الحافية اقتربت من الطيور . الاقدام لا تقطع الارض بسرعة اذا قورنت بالمسافة التي قطعت توا . بضع الطيور تتناقص بسرعة اذا قورنت بالمسافة التي قطعت توا . بضع خطوات فقط هي التي تفصل بينهما .

لكن ما ان يقترب الاطفال منها حتى ترفرف بأجنحتها وتطير ، واحدا فاثنين فعشرة ، وتشكل كل الطيور الابيض منها والرمادي قوسا فوق البحر ، ثم ما تلبث ان تهبط بادئة حركتها من جديد وفي المكان نفسه على حافة الامواج تقريبا وعلى بعد نحو مائة ياردة منهم .

حركة المياه عند هذا الحد كانت غير محسوسة ، الا في اللحظة التي يتغير فيها لون المياه كل عشر ثوان ، حين تلمع الرغوة المتطايرة في ضوء الشمس .

***

يتقدم الاطفال الثلاثة الشقر جنبا الى جنب ، بخطوات سريعة ومنتظمة ، ممسكا كل منهم بيد الاخر ، دون ان يعبأوا بالآثار المنحوتة باحكام فوق الرمال النقية ، ولا بالامواج الصغيرة التي على يمينهم ، ولا بالطيور التي امامهم سواء منها ما يطير او ما يسير .

كانت وجوههم الثلاثة التي لفحتها الشمس والتي هي اشد سوادا من شعرهم تبدو متشابهة ، كذلك تعبيراتهم تتماثل في طابع الجد والتفكير بل وفي شيء خفيف من القلق . وايضا ملامحهم لا تختلف ، مع انهم صبيان وفتاة ، شعر البنت اكثر طولا واحسن اعتناء واطرافها اكثر نحافة . لكن ملابسهم متطابقة : بنطلون قصير وقميص بهتت خيوطها الزرقاء .

كانت الفتاة في اقصى اليمين قريبا من البحر ، على يسارها الصبي الذي يصغرهم قليلا . الصبي الاخر القريب من البنت في طول الفتاة .

امامهم انبسطت الرمال الصفراء الناعمة الى اقصى امتداد للبصر . شمالهم ارتفع عموديا الحاجز الحجري البني الذي لا تتخلله طريق واضحة .. يمينهم على امتداد الافق الازرق الساكن تطرز البحر المنبسط بموجة صغيرة مباغتة ، ما اسرع ان تتكسر فتتلاشى في رغوة بيضاء .

***

حينئذ يحدث ارتطام المياه ، بعد عشر الثواني ، النقرة نفسها التي تنجوف على جانب الشط ، ويطقطق الرمل المتدحرج .

تتكسر الموجة الصغيرة فتنتشر رغوتها اللبنية فوق المنحدر مسترجعة البوصات القليلة التي فقدتها ،خلال الصمت المخيم يحمل الهواء الهادىء رنين جرس يدق من مسافة بعيدة .

قال اصغر الاطفال الذي يسير في الوسط : « هذا هو الجرس » .

لكن صوت الحصى المتلاشي في البحر ابتلع هذا الرنين الخافت جدا . اصبح على الاطفال ان ينتظروا حتى نهاية الدورة ليلتقطوا الاصوات القليلة المتبقية التي افسدتها المسافة .

قال اكبر الاطفال ! « هذا هو صوت الجرس الاول » .

الموجة الصغيرة تتكسر على يمينهم .

حين عاد الهدوء مرة ثانية لم يعد الاطفال يسمعون شيئا ما .

ما زال الاطفال الثلاثة الشقر يسيرون بالايقاع المنظم نفسه وكل منهم يمسك بيد الاخر . فجأة كان مسا قد اصاب مجموعة الطيور التي امامهم والتي على بعد خطوات قليلة منهم فرفرفت بأجنحتها وطارت .

رسمت النقوش نفسه فوق المياه ، الى ان هبطت على الرمل وابتدأت تسير من جديد ، وفي المسافة نفسها ، تقريبا على حافة الامواج وعلى بعد حوالي مائة ياردة منهم .

***

قال اصغر الاطفال « لعله لا يكون صوت الجرس الاول ، فنحن لم نسمعه جيدا من قبل » .

اجاب الصبي التالي له « بل سمعناه وهو الصوت نفسه » .

لكنهم لم يغيروا من خطوهم ، والنقوش نفسها ما زالت تظهر من خلفهم تحت اقدامهم الستة الحافية وهم يسيرون .

قالت الفتاة : « لم نكن من قبل على قرب كاف » .

بعد دقيقة واحدة قال اكبر الاطفال الذي هو بجانب الجرف : « ما زلنا بعيدين » .

وحينئذ استمر الثلاثة يسيرون في صمت.

ظلوا هكذا في صمت حتى حمل اليهم الهواء الهادىء مرة ثانية دق الجرس وكان ما يزال غير واضح ، قال اكبر الاطفال حينئذ : « هذا هو الجرس » . لم يجب الآخران .

فردت الطيور التي كانت في متناول الاطفال اجنحتها وطارت واحدا فاثنين فعشرة .

حطت جميعها دفعة واحدة فوق الرمل وجعلت تتحرك فوق شط البحر على نحو مائة ياردة من الاطفال .

البحر يمحو باستمرار اثارها الشبيهة بالنجمة . الاطفال الذين كانوا اقرب الى الجرف ويسيرون جنبا الى جنب ممسكا كل منهم بيد الآخر خلفوا على عكس ذلك آثارا عميقة كانت خطوطها الثلاثية موازية لشط البحر على طول الشاطيء الممتد .

على اليمين تبزغ الموجة الصغيرة نفسها على جانب البحر الساكن المستوى ، ودائما في المكان نفسه .

القاهرة

عبدالحميد ابراهيم